

كلمة مرمزة -

المتنبى

أبو تمام ، الوزر ، القافية ، التجدير
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

—»»»»»—

في (المدة) لابن رشيقي : ثم جاء أبو الطيب فلا الدنيا ،
وشغل الناس

في (المثل السائر) لابن الأثير : وقفتُ على أشعار الشعراء
قديمها وحديثها فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب
للمعاني الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منهما للطيف الأغراض
والمقاصد

في (خزانة الأدب) للبغدادي : التنبي سريع الهجوم على
المعاني

في (شذرات الذهب) لابن العماد : ليس في العالم أشعر من
المتنبى أبداً ، وأما مثله فقليل

قلت ذات مرة للعربي الألمي الأستاذ (رياض الصلح)
— وقد ذكرنا التنبي وأبا تمام — : إن الأول كان يخلق في سماء
الشعر بعمانيه ، وإن الثاني كان يتوص في بحره على لآليه ، فقال :
وقف . إذن ، التنبي (طيارة) ... وأبو تمام (غواصة) ...

ولقد جاء الذي شغل الناس ، والذي هو دهره من رواة
قلائده بما جاء به وهو من تلك القافية وذاك الوزن في سجن .
ولولا هذان لأسمك (أحمد) من القريض — الذي هو أعجب ،
وأراك ما هو آتق مما رأيت وأعرب . ولولا هذان لجوّدت
الأيام أيتما تجويد تسطير ما أبلى قلم يقل :

وعلاقة الديمقراطية بهذا في رأي « لونارد وولف » ومن
يجارونه أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت
الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها
حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد ، أو حين كان
النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان
رأي جميل لا شك في صدقه واحتوائه للكثير من الأصول
والملاحظات ودلالته على سعة المعرفة وحسن التحليل والتعليل
ولكن ما نصيب ذلك الرأي لو وقع للمحدودين من أصحاب
الحدود الحاسمة ومن جماعة المطالبين بتمدد الحجرات إذا قيل إن
النهار ضياء والليل ظلام ؟

قبل القرن السابع عشر رسم شكسبير بطله « هملت » وهو
ولا ريب « فرد » بين أمراء جميع الأزمان وليس بالنموذج التكرار
في طبقة الأمراء

وقبل القرن الأول رسم هوميرو أبطاله الفرسان وهم مختلفون
اختلاف أفراد لا اختلاف نماذج

فأين يذهب رأي وولف الجميل لو صدمناه باعتراضات شتى
على هذه الوثيرة ؟

يذهب إلى حيث تحسره ويحسره النقد وميزان الآداب ،
لأن وصف الشخص بعد القرن السابع عشر قد اختلف وكانت
لاختلافه علاقة بالديمقراطية ما في ذلك مرء . وعلينا نحن أن
« نتصرف » في التفريق بين أجزاء ذلك الرأي فنضيف إلى ميزان
الآداب صنجة تعين على الضبط والتمييز . أما إذا أبطلنا الرأي
وعطلناه حتى يعود لنا وولف ببيان الحجرات المضيئة في الليل
والحجرات المظلمة في النهار فتحن الخاسرون لأننا نجعل مواقع
التدقيق لا لأننا نعرف التدقيق في نقد الآراء

الحسد الحاسم أو العقل المحدود هو آفة الجامدين الكبرى ،
وهو علة الركود في آدابنا وفنوننا ، ولكننا نتغلب عليه وزرّوض
عقبانه ، ولا نستدل على ذلك بشيء أدل من زهدنا في الجدل
« البيزنطي » علماً بعد عام

عباس محمد المقام

ولم تحسن الأيام تكتب ما أُملي^(١)

رُبَّ مَا لَا يُسَبَّر (الشعر) عنه

والذي يُضمرُ الفؤادُ، اعتقاده^(٢)

وما قيّد الشعرَ العربيَّ إلا قوافيه، وما قصّرَ خطواته في ميادين الشؤون إلا تلكم الأوزان (البدوية) والآهية والقافية في أكثر الأحيان هي القائلة لا القائل، والوزن هو الوزن لا شعور الشاعر؛ فأكثر الشعر ليس لأهله لكنه للوزن أو للقافية... إنه مما أتى، مما وُجد... ليس هو مما قُصد... وكائن في الضائر من معاني باهرات مدهشات قد غيبتها القوافي؛ وإذا كان ذلك القديم الكريم الموروث قد كفى في شيء فتمتة أشياء لم يستقبل بها، والراغب والمطالب في (الحضارة) في كل وقت جنة

ولولا أن عبقرية متخية قوية عند المتنبي قد أنكرت الجري على أساليب القوم أو بعض أساليبهم، إذا كان مدح فالنسيب القدم

أكل فصيح قال شعراً مستقيم^(٣) وأرادت أن تحرر ربها لأقام (الكندي) دهره من تباع (الطائي) يأخذ بأخذه فلا يجاريه، ويكدر روحه في أن يصوغ كما يصوغ فلا يساويه؛ وحبب في صوغه وغوره لا يلحق. «أود المتنبي أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرته عنه خطاه، ولم يمتطه الشعر من قياده ما أعطاه^(٤)» وقبلما ضارح كبير مقلد عظيم مقلدا

ولم يستطع المتنبي — على تبريزه وارتقائه — أن يزحزح حبيبا عن مكانته، وما قدر إلا أن يفعد في عرش الشعر معه. وليس بقليل أن يقتطع من ملك حبيب ما اقتطع، ويختلج من رعاياه من اختلج. فالناس بعدها في كل زمان حزبان: متنبى، وتماي، لكن جماعة (أحمد) أكثر عدداً، و (الحبيب) شيعة به مغمون

وقد قالوا: أبو تمام عند الخاصة أشعر، والمتنبي أشعر عند العامة. وما أنصف المتنبي هؤلاء القائلون. إن في (السيقيات والكافوريات والمضديات) وغيرهن لآيات بينات، وإن فيهن لسحرا. وإذا كان لأبي تمام عشر قصائد علاهين علواً كبيراً، فإن للمتنبي قد آمنه خمسين قصيدة أو أكثر من ذلك. وقد يقول قائل — وفي قوله حق — إن طول الأجل وقصره قد أعطيا ومنما، فلم يعمّر (حبيب) ما عمّر (أحمد)

وكان شيوخ ابن خلدون يرون — كما قال — أن نظم المتنبي والمرى ليس هو من الشعر في شيء — الله أكبر! — لأنهما لم يجريا على أساليب العرب^(٥)

وكلام هؤلاء الشيوخ (شفاهم الله، وشق ناقل قولهم معهم) ليس بشيء إلا شيئاً لا يُعبأ به؛ فأساليب العرب متنوعة مختلفة، وليس هناك أسلوب أوحد؛ ولكل قبيل طريقة، وللبديوي بلاغة، وللحضرى بلاغة، وللأفليم أو المكنان، وللخليقة والمزاج أثر وسلطان؛ ولكل عصر أو قرن زي ولحن. و«أحسن الكلام ما شا كل الزمان»^(٦) «والدنيا في تبدل مستمر، وأحوال العالم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر»^(٧) ولكل نابغة نهج معلوم

فتنكب المتنبي عما تنكب عنه، وسلوكه السبيل الذي

(١) في رثاء عبد الله بن سيف الدولة، والصدر (وما تبع الأيام على بأمرها) وفي هذه القصيدة:

هل الولد المحبوب إلا تلة وهل زورة الحناء إلا أذى البعل
وما الدهر أهل أت تؤمل عنده حياة وأن يبتاق فيه إلى النسل
والمرى من هنا مضي في تكره الحياة والنسل إلى الناس

(٢) في أبي الفضل بن العبد يشته بالبروز وفي القصيدة يقول:

مربي لسانه، قلبي رأيه، فارسية أعياده
خلق الله أنصح الناس طرا في مكانه، أمراه أكراده
مثل ما أحدث النبوة في العالم (م) والبث حين شاع فاده

(٣) مطلع قصيدة المتنبي في سيف الدولة

(٤) النمل السائر

(١) في (الجزء الأول من كتاب البر) المقدمة لابن خلدون: الشعر هو الكلام البليغ، المبني على الاستعارة والأوصاف، الفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في حرمة ومقصده مما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المحصورة به. فالكلام منظوما وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعراً. وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمرى ليس هو من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب

(٢) المأمون في كتاب الإيجاز والاعجاز للتحالي

(٣) العلامة الفيلسوف ابن خلدون في (مقدمته)